طبائع الغوريلا في مسارحها

رحلة الى حماها في الكنغو البلجيكية

للاستاذ جرجيان هكسلي البيولوجي المشهور وحفيد هكسلي الكبير
[خاصة بالمقتطف]

في قلب افريقيا حيث تتصل اوغندا بالكنغو البلجيكية تقوم سلسلة من البراكين النشاطة يحتازة وادي الرفت وتقع الى الجنوب منها بحيرة كيفو والى الشمال بحيرة ادورد . هذه البراكين تعرف ببراكين ڤيرونجا وهي ثمانية يتفاوت ارتفاعها من ثمانية آلاف قدم الى خمسة عشر الف قدماً . اما القمم القائمة في الوسط فأعلاها وسنوحها تكسوها بحراج كثيفة وتغطيها سلالة خاصة من نوع الغوريلا أكثر شعراً من ابناء عمومتها في الغرب واضرب الى اللون الرمادي . هذه البراكين وما يحيط بها من الارض افردتها الحكومة البلجيكية وجعلتها حمى طبيعيًّا للاحياء النباتية والحيوانية التي تعيش فيها . فهي بمثابة حديقة شاسعة لغرائب الطبيعة في قلب افريقية التي بهذه الغرائب . وما في هذا الحمى من الغوريلا التي يبلغ عددها بضع مئات وغيرها من الحيوانات النادرة تحافظ عليه الحكومة محافظة دقيقة من سطو الصيادين عليها . ولذلك فالامل معقود على الحكومة البلجيكية ببقاء هذه الفردة سليمة من الانقراض الى ما شاء الله

* * *

في اواسط نوفمبر الماضي (١٩٢٩) شرعت في رحلة الى هذه الحمى مع زوجتي وصديق لي وخمسة واربعين حمالاً من اهل تلك البلاد . فسرنا من حدود اوغندا يومين كاملين قبلما وصلنا الى مكان في سفوح هذه الجبال نستطيع ان نضرب فيه اطنابنا وهو على علو ٨٠٠ قدم بين قرى بيكنو وكارسنبي . وفي اليوم التالي لوصولنا الى هذا الحط توغلنا الجبال الى ارتفاع ١٢ الف قدم فرأينا جاموساً بريًّا منفرداً فاقتربنا منهُ حتى صرنا على ثلاثين ذراعاً منهُ

الاشجار في هذه المنطقة غريبة . فاشجار الخلنج (Heather) الجارة يبلغ ارتفاعها اربعين قدماً واشجار الكارس عشرين . وبين منطقة الاشجار المذكورة ومنطقة الحزران التي لا يتعدّى حدّها الاعلى تسعة آلاف قدم ترى اكتاف الجبال مكسوّة بحراج من الاشجار لا تختلف كثيراً عن اشجار الجوز . وعلى سطح الارض تحتها نمو اعشاب كثيفة كالها

الفورلا في مسارحها

مقتطف ديسمبر ١٩٣٠ أمام الصفحة ٤٩٣

نوع من القدوس . وبنات القراص يلتهمك نيؤلمك لذعهُ طول الليل . فجذوع القدوس الريانة هي طعام النمورلا وهذه المنطقة مسكنها . ولا يفعلن تلك الحيوان الا طائفة من الاقزام يحيّون مسارح النمورلا للصيد . وشاهدنا نمورلاً على طرف وادٍ من الاودية الحمراء فصاحت صياحاً مزعجاً وفرت امامنا . ولما صِدْنا في الجبل قليلاً شاهدنا بقعة فيها كثير من أكنانها . فاستحوذ علينا شعور غريب لما دخلنا مكاناً تقطنهُ هذه الحيوانات الشبيهة بالانسان وجلسنا فيه

ومعظم هذه الاكنان مبني على سطح الارض باغصان واعشاب جافة في شكل نصف كروي مجوّف ولكن لم نرَ اثراً للاتقان ودقة الصنعة في بنائها . وقد تكون مبنية بين اغصان الاشجار تحيط بها الفرائش الكثيفة فتجد الكنّ مكسوًّا بها من كل جوانبه الاّ بابهُ كانهُ كهف اخضر . ولكل كنّ تقريباً سقف من الاعشاب الخضراء

هذا كل ما رأيناهُ من حيوانات النمورلا الفاطنة في هذه الجبال . ومالم نرحل الى تلك المنطقة يتعذر عليك ان تتصور الحراج النباتية التي تكسوها . وسطح الارض تحت هذه الاشجار تغطيهِ اعشاب كثيفة حتى ليتعذر عليك السير الاّ بشق طريقك فيها شقًّا . ولما كانت سفوح الجبال شديدة الانحدار فكثيراً ما يجب ان يكون الانتقال تسلقاً بالاذرع من اغصان الاشجار والانتقال كذلك من غصن الى غصن . وفي هذا الميدان تبزُّ النمورلا رشاقة وسرعة . والنمورلا تخالف العادة التي تجري عليها الحيوانات في طلب الغذاء وهي البحث عنها ليلاً . فانها تطلب قوتها نهاراً وتقبع في كنّها ليلاً

***

اما الاكنان فتكون عادة طوائف صغيرة في مجموعة كبيرة وذلك تبعاً لنوع المعيشة التي تعيشها هذه الحيوانات . فالنمورلا حيوان يعيش عيشة متوسطة بين الاسرة والقبيلة . وقد اشار درشيد Derscheid الذي قضى بضعة شهور في هذه الجبال يدرس طبائع النمورلا الى انهُ رأى في خلال هذه المدة ثلاثة ذكور كلاً منها على حدة وزوجين واكثر من عشر قبائل . اي ان الاجتماع قبائلي متغلب على الانفراد افراداً وازواجاً . وكل قبيلة تشتمل عادة على نحو عشرة افراد ولكن عدد افرادها قد ينقص الى سبعة وقد يزيد الى ثلاثة واربعين

وقال انهُ شاهد قبيلة تشتمل على اثني عشر فرداً احدها ذكر والباقون اناث . وهذا نادر . لان العادة ان يكون عدد الذكور اكثر من ذلك فتتألف القبيلة من بضعة ذكور كل ذكر منها تلتفّ حولهُ عائلتهُ ويقود القبيلة كلّها احد هؤلاء الذكور

ومتى ولدت الانثى طفلاً ذهبت مع زوجها الى مكان بعيد عن مقر الجماعة التي ينتميان اليها فينيان كنًّا لهما ويعيشان فيه عيشة انفراد . فالنمورلا في نظام معيشتها هذا لا بدَّ

ان تكون قريبة جداً القرب من نظام المعيشة الذي جرى عليه اسلاف الانسان في العصور الغابرة

ولا ريب في ان اكبر فرق بين الانسان والقرد هو ان انا نتكلم وهو لا يستطيع ذلك. ومحيح ان بعض الحيوانات والطيور تستعمل بعض الاصوات للتخاطب، ولكن هذه الاصوات ليست لغة. فان الاصوات التي تستعملها لا تدل على اشياء ولكنها تعرب عن حالات نفسية. حتى اذكى القردة لا يملك صوتاً خاصاً للدلالة على الطعام. وكل ما يستطيعهُ اخراج صوت يشير به الى جوعه

والذكاء لا يستطيع النموَّ الا اذا استنبطت اللغة. بل ان العقل من دون لغة يظل مقيداً بقيود ثقلهُ فلا يستطيع النهوض. ولكن شعلة العقل تومض في افعال القردة وقد اثبتها تجارب كوهلر الالماني في القردة كما اثبتها حقيقة افضى اليَّ بها صديقي الكابتن فيلبس الذي اتيحت لهُ فرص نادرة لدرس هذه الحيوانات عن كثب. قال ان الغورلا في حالتها الطبيعية تحمل عصيًّا طويلة لترمي بها الاثمار من اعالي الاشجار. ففي ذلك ترى يدها متواضعاً للاستعانة بالاداة لتحقيق غرض. ومنهُ نشأت كل الآلات التي استنبطها الانسان

ومما اشتهرت به الغورلا شراستها. والظاهر ان هذه الشهرة ليس لها ما يؤيدها. انك لا تنتظر من حيوان تطلق عليه الرصاص وتجرحهُ ان يأتي اليك طائعاً ويلحس قدميك مستغفراً. ومن الغريب ان الفرنسيين يقولون عنهُ في احد كتبهم « هذا حيوان شرير. اذا هاجمهُ دافع عن نفسه »! ومما لا ريب فيه ان الغورلا اذا هوجمت دافعت عن نفسها دفاعاً شرساً بل هي تستطيع ان تكون شديدة الوطأة على المفتري عليها. فان بعض ذكور الغورلا يتفاوت وزنها من اربعمائة رطل الى خمسمائة رطل وتبلغ سعة صدر الواحد منها نحو ستين بوصة. وتستطيع ان تتنقل في غابة ملتفة الاشجار انتقالاً اسرع من انتقال الصياد البارع. ومن عادتها اذا تمكنت من فريستها ان تمزقها ارباً ارباً ومتى اثيرت اخذت تضرب على صدورها بيديها وتصيح صياحاً مزعجاً وقد وصفهُ بارنز (T.A.) احد مشهوري الصيادين بقولهِ انهُ « مخيف » ايضاً. ولكن متى تُركت الغورلا وشأنها اي اذا انت لم تهجم عليها فهي اكثر الحيوانات مسالمة وسكينة. فاذا عثرت فجأة على ام وطفلها او اذا أثرتَ ذكراً كبيراً منفرداً في فترة راحته اليومية فقد يداخلك الهجوم ولكن الصعوبة كل الصعوبة هي في الاقتراب من الغورلا لانها عادة تفرُّ منك. وقد اشار الدكتور هارتمان الى قول الرحالة هرفون كوينغز: « اذا لم تتعرض الغورلا فانها لا تبادئ الانسان الهجوم بل انها تجتنب هذا الهجوم جهد المستطاع »

على ان موضوع اهتمام الناس عامة هو علاقة الغورلا بالانسان. وهل هذا الوحش

الشرس يمتُّ الينا بصلة ؟ لقد كثر القيل والقال في هذه المسائل مما ينطوي على كثير من الخطإ والوهم . فلننظر فيها نظراً وافياً

ان العالم بعلم الحياة الآن ، يستطيع ان يؤكد من غير ان يلمَّ به خوف المناقضة او التناقض بان الانسان نشأ من حيوانات ادنى منهُ . ويبني تأكيدهُ هذا على طائفة كبيرة من الحقائق لا ينكرها من درسها درساً وافياً . اضف الى ذلك انهُ يستطيع ان يؤكد ايضاً انهُ مرَّ في اطوار مختلفة في اثناء ارتقائه من الاصل الحيواني الذي نشأ منهُ الى ان وصل الى حالته الحاضرة . فمن الف الف سنة كان حيواناً لا ذنب لهُ وقبل ذلك اي من نحو عشرين الف الف سنة كان في دور حيوان مذنب وقبل ذلك كان في دور حيوان الليمور المخطوم

وبيان تطور الانسان على هذا النمط لا يعني انهُ كان في كل منها ليموراً او قرداً كطوائف الليمور او القردة العائشة الآن . فاذا قلنا انهُ مرَّ في طور القردة مثلاً عنينا ان اسلافهُ كانوا حينئذٍ يختلفون عن الانسان الحديث ولكنهم كانوا يشبهون القردة في ان اجسامهم كانت يكسوها الشعر ، وكانوا يميلون الى المعيشة الشجرية الى حدٍّ ما . وكانوا يتغذون بالنباتات على الغالب ، ولهم فكوك ضخمة وادمغة اذا نسبت الى حجم اجسامهم حينئذٍ كانت نصف ادمغة الناس

سورة الفلق

زد على ذلك انهم كانوا قد ابطلوا عادة القردة في المشي على اطراف الاشجار وجعلوا ينتقلون من غصن الى غصن بتدليهم منها بايديهم . وكانوا كذلك قد انتقلوا من طور المشي على القوائم الاربع الى المشي مشياً نصف منتصب مستعملين ايديهم (قوائمهم الامامية) من حين الى آخر

من هذا الطور السابق للانسان وللقردة الحديثة نشأ فرعان من فروع شجرة النشوء احدهما نشأ حيوانات مالت الى المعيشة في السهل والى الصيد والغذاء اللحمي فارتقت واصبحت ناساً . واما الآخر فيمثل حيوانات لزمت الحراج ومضت في تكيفها للحياة الشجرية ولاحوالها فاصبحت القردة الكبيرة العائشة الآن

وهذه القردة على ما هي الآن ، ابعد صلة بالانسان من اسلافها (أي الاصل الذي نشأت هي والانسان منهُ) — لانها في ملايين السنين التي انقضت عليها زاد تخصصها للملاءمة الحياة الشجرية في الغابات

ومن الحجج التي يرمى بها انصار النشوء قول بعضهم : الفرد في الماضي ارتقى حتى صار انساناً فلماذا لا ترتقي حيوانات الشمبانزي والغوريلا الآن حتى تصير ناساً كذلك

واملي ان يكون ما قلتهُ الآن كافياً للرد على ذلك . ان نقطة التحوّل في هذا

التطور وقت في الماضي السحيق لما ولّت حيوانات الفرع الواحد ظهرها للاشجار وظلت حيوانات الفرع الآخر تعيش في الغابات فزاد تخصصها وفقدت قابلية التطوّر في نواحٍ اخرى . فالطريق الاول كان طريق الارتقاء . واما الثاني وكان مأزقاً لا مخرج منهُ

اما اليوم ، (وهذا يصحُّ على الف الف السنة الاخيرة) فلست تجد دافعاً لشوشًا في الحراج يدفع القردة للتطوُّر . اضف الى ذلك انها ضيّعت كل فرصة اتيحت لها للخروج من الحراج ومجاراة التطوُّر الانساني . لانها اذا خرجت الآن فانها لا تستطيع شيئاً في نزاعها مع الانسان على البقاء

ومع ان سبيل الارتقاء قُطع على القردة من الف الف سنة (الاّ اذا شاء الانسان ان يحاول تطبيق مبادىء اليوجنية عليها ليرى ما يسفر عنهُ ارتقاء الذكاء في القرود) نرى في القرود الماثلة الآن كثيراً من المميزات التي كان اسلافنا القدماء يتصفون بها

فاذا قابل الانسان المتمدن طائفة من الغوريلاّ وجهاً لوجه استطاع أن يطير على اجنحة الذاكرة والخيال الى ذلك الماضي السحيق لما كان نوعهُ في مطلع تلك المغامرات النشوئية التي اسفرت عن تحول الحيوان الى الانسان . في مشية الغوريلاّ المتثاقلة يرى انصاب قامته وفي طوائفها اصل القبائل التي نشأت منها دول العصر الحديث وفي الذكر القوي يقود جماعتهُ يتبيّن الطراز الاولي لرؤساء وزاراتنا وجمهورياتنا . ان شعلة الذكاء الضئيلة التي تمكنهُ من تناول عصا يرمي بها الاثمار من اعالي الاشجار قد نشأت وارتقت بواسطة استنباط اللغة حتى انتهت الى عقل الانسان المعاصر الذي يرود الطبيعة كاشفاً عن اسرارها مشيعاً النور في جنباتها مسيطراً على قواها

من الاجرام قتل هذه الحيوانات التي تحسب بحق وثائق الماضي الحية . ونحن مدينون للحكومة البلجيكية لعنايتها بها ومحافظتها على هذه الجبال والحراج التي تقطنها

***

[المقتطف] جوليان هكسلي كاتب هذا المقال حفيد هكسلي الكبير وهو من علماء انكلترا الشبّان الذين تعلّق عليهم آمال كبيرة . فانهُ بعد تخرجه من جامعة اكسفرد متفوقاً في التاريخ الطبيعي عيّن فيها مدرّساً في علم الحيوان ثمّ نقل استاذاً للحيوان في كلية الملك بلندن فاستاذاً للفسيولوجيا في المعهد الملكي . وقد ندبتهُ وزارة المستعمرات في السنة الماضية للسفر الى مستعمرات افريقيا والبحث في برامج التعليم فيها . ومن مؤلفاته : الفرد في مملكة الحيوان . ورسائل بيولوجي . وتيّار الحياة . واشترك مع الاستاذ هولدين في وضع كتاب : البيولوجيا الحيوانية

الغوريلا في الاسر

وقد عنيت انس اليز كتغهام (لندن) بتعليمها فاقتبست كثيراً من عادات المعيشة المدنية

مقتطف ديسمبر ١٩٣٠ امام الصفحة ٤٩٦